تحت المطر

يطاردها بإصرار منذ أكثر من عام.. تبدأ المطاردة صباحًا في الشارع الكبير.. في التوقيت نفسه.. ومن المكان نفسه حتى محطة الأتوبيس.. مسافة غير قصيرة.. العجيب أنه لا يعاكسها بحركة.. ولا يضايقها بكلمة.. ولا يقترب منها.. بل يتتبعها كالمسحور.. في المحطة، عيناه عليها.. نظراته جميعًا لها.. ينتظر ويتمنى لو يطول الانتظار.. أو ليذهب الأتوبيس فلا يأتي.. لم يتخلَّ يومًا.. إلا الإجازات.. لم يتأخر مرة.. والأكثر عجبًا أنه لم يركب معها مرة واحدة!..

بقدر ما تمقته كانت تعشق مطاردته وملاحقته إياها.. وهذا الإصرار يذكرها أنها ما زالت على قدر من الجمال.. وأن هناك مَن يتتبعها.. وعلى سبيل المثال هذا الشاب.. هذا إن لم يكن يسهر الليالي من أجلها.. فعلى الأقل تحتل جزءًا من تفكيره..

خرجت إلى الشارع الكبير.. لم تلتفت إلى مكانه.. فإنها تثق بوجوده.. تخطو.. في هذه اللحظة يتأملها.. لعله يبتسم.. ولعل قلبه يدق مسرعًا.. تعلم أنه على مسافة منها تجنبه عتاب الآخرين.. أو تعليق المارة.. لكن.. لا ريب أن هناك مَن وقف على أمره.. لذا، حرصت على استقامة نظراتها حتى لا تلوك سمعتها الألسنةُ.. وعادت التساؤلات

تتدفق في رأسها.. ماذا يريد؟.. ولماذا يقصدها دون بنات جنسها.. والطرقات تزدحم بهن.. ويتفوقن عليها في كل شيء.. كل شيء!.. في المحطة.. التقت عيناهما مرة.. مصادفة على الأقل من ناحيتها.. كانت نظرة خاطفة، تمنت لو طالت.. لا لرؤية ملامحه.. بل لتقف على ما يقلق بالها نهارًا.. وخلال شوط طويل من الليل:

- لو أكاشف إحدى زميلاتي.. ولكن كيف.. كيف؟؟

لقد حاولت من أجل إفراغ شحنات همها أو لتفيد برأي.. ولم تفلح.. سِمتُها القلق إلا أن طرفًا من السعادة يتردد في حناياها.. والسبب صاحب الرحلة اليومية..

- لكأنني على قدر من الجاذبية.. في عينيه..

ما زالت تمقته.. شعور غامض لا تدري سببه.. نسمة هواء تلفح وجهها، فتوقظها من غفلتها.. تعيد خصلة شعرها.. تجمع طرف معطفها البالي.. حثت الخطى حيث المحطة.. وقفت مع الأفراد القليلين.. نسمة أخرى أتت.. استمرت.. اشتدت.. تنقلب ريحًا.. حانت منها التفاتة حولها.. الوجوه تتزايد.. هو من بينهم عيناه عليها.. نظراته لها.. لا يرى إلا هي وكأنها الوحيدة تحت المظلة!.. لوت عنقها في ناحية أخرى، بينما أطلت من ملامحها ابتسامة خفيفة.. عذبة.. تجهمت فجأة!.. النوافذ تصطك من أثر الرياح.. أغصان الشجر تبدو كالمراوح.. حفيف

الأوراق يعلـو.. لحـق بـالواقفين المَلـلُ.. فقـد تـأخر الأتوبيس.. الأشياء تتلون بلون الرمال والتراب.. بدت الدنيا شاحبة.. عيناه تراقبانها، وقد غشى وجهه الشرودُ!

تنطلق العاصفة، ويختفي قـرص الـشمس.. تنظـر إلى صفحة السماء.. السحب شديدة السواد..

أصوات الرياح تصم الآذان.. خصلات الشعر تتطاير في عصبية على الوجوه والأعناق.. الرياح تعوي.. تكتسح ما على الأرض من أتربة وأوراق.. المارة يسرعون كـلٌّ إلى وجهتـه.. قـصد الكثيرون المظلـة.. الطيـور في الفـضاء أصابها الهلع، فولت حيث أعشاشها.. اشتد الزحام تحت المظلة.. الأجساد تتلاحم اتقاء شر العاصفة.. الحيرة تطل مـن كـل العيـون.. وصـاحبنا بـين اللحـم تـبرق عينـاه بالأمل.. الضالة تدور برأسها.. يتسع البريـق في عينيـه.. يزحف إلى صدره، فتزداد نبضات قلبه على الأثـر.. تحـت المظلة تجتمع المتناقضات، وتتلاقى المتنافرات.. عيون قلقة وأخرى خائفة ترهب الزحام.. رقاب مـشرئبة.. نفـوس ضعيفة تعمل في الخفاء!.. والأتـوبيس أمـل كبـير يـراود الكثير.. ولكنه يتأبى ويتأفف.. تحت المظلة - أيضًا - من يتوقع مجيئه.. ومن يتمنى ألا يأتي!

عـصفت العاصـفة.. هاجـت وتـذمرت.. سُـمع لهـا أصوات متباينة.. تلونت الدنيا بلون كالح كئيـب.. ومـا من مأوى إلا المظلـة.. انـدفعت الأمطـار تـدر بـسخاء..

وما زالت الناس تتسابق من كل فج إلى المظلة.. وكل أمنيته أن يجد مكانًا بين الزحام.. وينزوي الأمل في مجيء الأتوبيس.. والسماء ترسل مياهها مدرارًا.. وقصف الرعد يطغى على كل الأصوات.. ويرسل الرهبة.. وبرق السماء يبعث الذعر.. ويسقط المطر ويسقط.. المياه تنزلق لتصنع جداول صغيرة في أرض الشارع.. تتجمع في برك صغيرة أيضًا..

لناس تحت المظلة كتلة تموج من الخارج.. في الداخل المدفون ثورة.. وصاحبتنا تصارع الأجساد.. وعلى وجهها حل الذعر.. وهو.. لها بالمرصاد!.. نائيًا بنفسه كمن لا يدري حقيقة الأمر.. تعبر الألسن، فقد اشتد الموقف قتامة.. يعلو منسوب المياه، فتغطي الأقدام المتململة.. والبرودة تسري في الأعضاء.. لترتجف.. وتصطك لأثرها الأسنان المطبقة.. الظلام يلون النهار.. والمياه تخر من السماء وتنزلق من فوق سطح المظلة على كتلة البشر.. رعب آخر وخطر جديد!.. كلٌّ يُعمِل تفكيره.. كيف الهروب؟.. أُغلقت أبواب المنازل على مَن بداخلها.. سكتت الأصوات إلا من أصوات ناس المظلة.. وصوت سقوط المياه على المياه.. وهزيم الرعد.. فجأة، انسلخ أحدهم يجري في المياه.. يتقافز في حماس ويهتف:

- ماذا أنتظر؟! لقد تركت زوجتي تعاني الحمى..

كانت تلك المسيرة بداية لمسيرات مثيلة.. وتتكسر كتلة البشر.. فالأفراد يندفعون كالزوارق.. تطرقع

أقدامهم في المياه.. أو تغوص في الأوحال.. من أجل نفوسهم أو من أجل آخرين.. أخيرًا.. استيقظ صاحبنا من سكرته.. فوجئ بها تنظر إليه.. الرهبة تملؤها.. وملامحها.. ما زالت تنطق بالمقت الشديد بقدر ما هي محتاجة إليه!.. فقد هرولوا جميعًا إلا هو.. وهي.. عقد الجبن ساقيها أن تنطلقا.. شل الحب تفكيره.. أفاق على صوتها.. لم يدر ماذا تقول.. لكنه يعرف ما تريد.. كررت نداءها.. نظر من حوله ليرى الحقيقة ماثلة أمامه.. عد نفسه في جنة.. والصوت لملاك.. ولعله رغب أن ينتشي بأنغام الصوت.. نظر في كل ناحية.. ولسان حاله يقول:

- لا بأس.

اندفع نحوها.. لمسها.. بل.. بل أمسك يدها.. لم يشعر بدفء يدها.. بل استشعر شيئًا غريبًا يبعث النشوة.. جعل يجرها وراءه.. ما زالت تلتمع في عينيه آثار الدهشة.. التفت ليراها.. ليتحقق منها.. ابتسم.. إنها هي.. كما عهدها.. لا تحبه.. بل تمقته.. فقط تحتاج إليه.. لوى شفتيه.. ترنح حين تعثر قدمها بشيء على الأرض.. جذبها إليه.. لف يده حول خصرها ليحميها من الوقوع.. سارا جنبًا إلى جنب.. الدنيا ما زالت تزمجر وتزأر.. وترسل هواء باردًا محملًا بمياه ثائرة تلسع.. أرسلت طرفها بعيدًا.. دارت به.. استقر عليه.. جعلت تتفرس كل لمحة من ملامحه.. كادت تضحك وتضحك.. ها هي الآن بين

يديه.. مستحيل يبدو حقيقة!.. تحتمي به ليست متقززة.. فهو طوق النجاة لديها.. فالطريق ما زال طويلًا.. المياه سياط على وجوه المباني والمنشآت.. الرعد والبرق على أشدهما.. معركة سماوية ترسل لظاها على الأرض.. شيء يجذبها نحوه.. أقوى من الخوف.. تنقل المياه أخبار العاصفة.. غصون أشجار وأوراق لعلها ذكريات.. الطبيعة تصيح وتصخب.. لكنهما صامتان.. عاد يرنو إليها.. تحت معطفها.. لمح رداءها الأسود.. ترتدي الغوامق صيفًا وشتاء.. لِمَ تصر على هذه الألوان الداكنة.. ولِمَ انسم وجهها بالحزن سبب تعلقه بها.. لو يستطيع أن يبدل أحزانها.. كيف؟.. كيف وهي التي تبغضه؟! يكفي أنها بجانبه.. تحتمي به من غائلة الطبيعة.. لم يكن يحلم بواقعة.. لكنها الأقدار.. لعب لسانه في فمه.. كاد يقطع الصمت.. قرأ ازدراءها، فسكت عن الكلام.. بوُده أن يحكي لها عن مشاعره.. وعن حياته.. وعن.. إنها فرصته الوحيدة.. تبدلت نظرة الازدراء في عينيها إلى نظرة تأمل.. نظر إليها بعينين ودودتين.. طالت النظرة.. رأت الدموع تتألق في عينيه.. وعلى شفتيه ارتسم شبح ابتسامة.. طال تأملها.. لم تر دعوة الشيطان في نظرته.. وهي بين يديه.. نظرت في ناحية أخرى.. تمنت لو طالت النظرة أكثر، فتقف على دواعي حيرتها.. انمحت من عينيها نظرات

الاحتقار.. عمل فكرها.. ضغط على يدها برغمه.. الأفكار في عقلها تختلط وتتضارب.

سكنت عينا السماء من البرق.. تلاشى صوت الرعد وصفت السماء.. أمسى المكان ساكنًا إلا من صوت قدميها.. عاد ينظر إليها.. شعرها ملتصق على فروة رأسها وجبهتها وجيدها.. كم هي جميلة.. رائعة.. غصن يميل في حنان.. تأملته فأثار شجونها.. وشردت.. رأى دموعها على خديها كحبات اللؤلؤ.. لو يستطيع أن يمسح هذه الدموع.. فجأة رأت شيئًا يتقافز نحوها.. صرخت.. انكفأت في أحضانه.. ابتعد الشيء حين قال:

- إنه فأر صغير أغرته حلاوة الحياة.. لكنه مسكين، فالموت له أينما ذهب.. وإلا..

تأثرت لصوته وعبارته.. لكم شعرت بدفء أحضانه!.. لاحت على وجهها ابتسامة.. لم تفلح في إخفاء أحزانها.. وهو لم يستطع أن يمنع يده من أن تضغط على كتفها.

ظلا سائريْن من حارة إلى أخرى يقاومان الأوحال.. يقتربان من بيتها.. والدليل لهفتها وسرعتها.. داخله يئن.. روحه تكاد تفارقه.. أصبحا في مدخل زقاق.. في الشرفة، يقف ثلاثة أطفال.. يهللون.. ترتفع أياديهم وتعلو أصواتهم الفرحة.. على وجهها قرأ السعادة.. في عينيها قرأ

وقرأ.. نقل بصره بين ردائها الأسود والأطفال في الشرفة.. تخلصت من يديه.. هرولت إلى باب البيت.. دخلته دون أن تودعه.. لعلها خشيت أن يرى دموعها الغزيرة..

في الصباح، لمحته هو هو.. يمارس هوايته.. وفي قلبها، تبدل المقت شعورًا آخر.